**المبحث الأوَّل: ترجمة ابن خلدون**

**أوَّلا: حياته في المغرب والأندلس [732ه-784ه]**

1. **نسبه :**

عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الحسن بن مُحَمَّد بن جابر بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون، أصل هذا البيت من إشبيلية غير أنَّه ذكر شيئا حول نسبه إذ قال: هذا لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هذه العشرة، ويَغْلب على الظنِّ أنَّهم أكثر، وأنَّه سقط مثلهم عددا، لأنّ خلدون هذا هو الدَّاخل إلى الأندلس، فإنْ كان أوَّلُ الفتح فالمدَّة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زُهاء العشرين، ثلاثةٌ لكلِّ مائة، كما تقدَّم في أوَّل الكتاب الأوّل، ونسبنا في حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب، معروف وله صحبة.

ولما دخل خلدون بن عثمان جدّنا إلى الأندلس، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت، ونشأ بيت بنيه بها، ثم انتقل إلى إشبيلية، ولم يزل بين بني خلدون بإشبيليّة كما ذكره ابن حيّان وابن حزم وغيرهما، سائر أيام بني أمية إلى زمان الطوائف، وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة، ولما غلب كعب بن عبّاد على إشبيلية، واستبدّ على أهلها، استوزر من بني خلدون هؤلاء واستعملهم في رتب دولته، وحضروا معه وقعة الجلالقة كانت لابن عبّاد وليوسف بن تاشفين على ملوك الجلالقة، فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عبّاد فاستلحموا في ذلك الموقف، بما كان الظهور للمسلمين، ونصرهم الله على عدوّهم، ثم تغلَّب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس، واضمحلَّت دولة العرب وَفَنِيَتْ قبائلهم[[1]](#footnote-2).

1. **سلفه بإفريقية :**

يسرد لنا ابن خلدون كيف نَزَحَ سَلَفُهُ إلى بلاد إفريقية، لمَّا اضمحلَّتْ دَولتهم وقُبِرَ سلطانهم في قصَّة طويلة تجلَّت منها كثير من الوقائع، حتَّى بلغ في هلاك الحاجب بن محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار سنة 727ه، لما استدعى السلطانُ جدَّهُ محمد بن خلدون وأراده على الحجابة، وأن يفوِّض إليه أمره، يقول ابن خلدون "وكان السُّلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدّنا محمَّدا عليها وثوقا بنظره واستنامة إليه إلى أن هلك سنة 737ه ونزع ابنه، وهو والدي محمد بن أبي بكر عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط، لمَّا نشأ عليه في حِجْرِ أبي عبد الله الرَّنْدِيِّ الشهير بالفقيه"[[2]](#footnote-3).

1. **نشأته وشيوخه**\***:**

ولد بتونس في غُرَّةِ رمضان سنة 732ه، ورُبِّيَ في حِجْرِ والده إلى أنْ يَفِعَ وحفظ القرآن العظيم على الأستاذ **أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرَّال الأنصاري**، وكان إمامًا في القراءات لا يلحق شأوه، وبعد أن استظهر القرآن العظيم عن حفظه، قرأ عليه بالقراءات السبع المشهورة إفرادا وجمعا، وعرض عليه قصيدتيْ الشَّاطبيِّ، ودَرَسَ معه بعض متون العلم الكبيرة، وفي خلال ذلك تعلَّمَ صناعة العربية على **والده** وعلى أساتذة تونس آنذاك منهم **أبو عبد الله محمد العربيّ الحصايري**، وكان إمامًا في النَّحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل، ومنهم **أبو عبد الله محمد بن الشواش المزازي**، ومنهم **أبو العبّاس أحمد بن القصَّار**، كان ممتعا في صناعة النحو، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة، ومنهم إمام العربية والأدب بتونس **أبو عبد الله محمد بن بحر**، لازم مجلسه وأفاد عليه، وكان بحرا زاخرًا في علوم اللِّسان كما وصفه ابن خلدون، كما أنَّهُ أشار عليه بحفظ الشعر، فحفظ كتاب "الأشعار الستَّة الجاهليين والحماسة" للأعلم الشنتمري، وشعر أبي تمام وطائفة من شعر المتنبي، ومن أشعار كتاب الأغاني.

ولازم أيضا مجلس المحدِّث **شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسيّ الوادي آشي** صاحب الرحلتين، وسمع عليه صحيح مسلم بن الحجّاج إلّا فوتا يسيرا من كتاب الصّيد، وسمع عليه كتاب الموطأ من أوّله إلى آخره، وبعضا من الأمّهات الخمس، وناوله كتبا كثيرة في العربية والفقه وأجازه إجازة عامّة.

وأخذ الفقه بتونس من جماعة منهم أبو **عبد الله محمد بن عبد الله الحيّاني**، **وأبو القاسم محمد القصير** الذي قرأ عليه كتاب "التهذيب لأبي سعيد البرادعي" وتفقّه عليه، وكان في خلال ذلك ينتاب مجلس الإمام **قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام** مع أخيه عمر وأفاد منه وسمع عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك الأصبحيِّ.

ولما وَلِيَ السُّلطانُ أبو الحسن إفريقيَّةَ سنة 748ه، قَدِمَ جماعة من أهل العلم كان يُلْزِمُهُم شُهُودَ مَجْلِسِه، ويتجمّل بمكانهم فيه، فلم يكن ابن خلدون ليُفَوِّتَ حَدَثًا علميًّا كهذا بل كان حريصا ينتاب مجلسهم ويستفيد منهم، ومنْ هؤلاء الشيوخ :

* **أبو عبد الله محمد بن سليمان السطِّي** :شيخ الفتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك.
* **أبو محمد عبد المهيمن الحضرميّ** : كاتب السُّلطان أبي الحسن وصاحب علامته[[3]](#footnote-4)، المحدِّث، قال ابن خلدون متحدثا عنه :" لازمته وأخذت عنه سماعا وإجازة الأمّهات الست، وكتاب الموطأ، والسِّيَر لابن إسحاق، وكتاب ابن الصَّلاح في الحديث، وكتبا كثيرة سرت عن حفظي، وكانت بضاعته في الحديث وافرة، ونِحْلَتُهُ في التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سِفرٍ في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون، مضبوطة كلها مقابلة، ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخطِّ بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفه، حتَّى الفقه والعربية الغريبة الإسناد إلى مؤلفها في هذه العصور"[[4]](#footnote-5).
* **أبو العباس أحمد الزواوي**: إمام المقرئين بالمغرب، قرأ عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السَّبع، من طريق أبي عمرو الدَّاني وابن شُريح، وسمع عليه عدَّة كتب، وأجازه بالإجازة العامّة.
* **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأيُلِّي:** شيخ العلوم العقلية أصله من تلمسان وبها نشأ، لازمه وأخذ عنه العلوم العقلية والمنطق، وسائر الفنون الحكمية، والتعليمية، وكان يشهد لابن خلدون بالتبريز والنبوغ فيها.
* **أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي**: قال ابن خلدون :"وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطّه، وكثرة علمه، وحسن سمته، وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السُّلطان، وحَوْك الشعر والخطابة على المنابر، لأنَّه كان كثيرا ما يصلّي بالسلطان، فلمّا قدم علينا بتونس صَحِبْتُهُ، واغتبطت به، وإنْ لم أتخذه شيخا، لمقاربة السِنِّ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم"[[5]](#footnote-6).

1. **الطاعون الجارف:**

لمَّا بَلَغَ ابن خلدون الثَّامِنَة عشر من حياته مُكِبًّا على التحصيل والجلوس بين يَدَي العلماء، نُكِبَ المشرق والمغرب نكبة عظيمة، ورَزِيَّةٍ بالغةِ الوجع، إذْ حَلَّ الطاعون الجارف كما سمَّاه ابن خلدون، "وذهب الأعيانُ والصُّدُور وجميع المَشْيَخَة، وهلك أبواي رحمهما الله"[[6]](#footnote-7)، وطُوِيَ البساط بما فيه، ولله الأمرُ من قبل ومن بعدُ.

1. **ولاية العَلامَة بتونس:**

لمَّا وَلِيَ المُسْتَبِدُّ على تونس أبو محمَّد بن تافراكين استدعى ابن خلدون ليكتب العلامة عن مَحْجُورِهِ وأسيره السُّلطان أبا إسحاق.

1. **رحلة ابن خلدون إلى المغرب الأقصى:**

لم تكن حياة ابن خلدون وهو شاب كبَقِيَّةِ لِدَاتِه وأقرانه، بل كان رجلا سَامِيَ الهِمَّةِ عالي الأُمْنِيَة، فلمَّا ارتحل إلى المغرب الأقصى اتَّصل بالسُّلطان أبي عنان ملك المغرب الأقصى، وتولَّى يومها الكتابة والتوقيع على المراسيم والخطابات الملكيَّة، ومَضَتْ بِه الأيَّامُ في بلاط الملك يحيك غمار الدَّسائس ويدفع عن نفسه كيد الوشاة، حتى اتَّهمه السلطان بالتآمر والكيد للمُلك، وامْتُحِنَ وسُجِنَ حولين كاملين، حتَّى أفرج الوزير حسن بن عمر عنه وردَّه إلى جميع وظائفه بعد أنْ هلك السلطان أبو عنان، وهنا يظهر نمط عجيب في حياة ابن خلدون موسوم بالتسارع في الكيد والدَّهاء، فلم يلبث ابن خلدون في ملك الوزير الحسن بن عمر وولده السلطان السعيد حتَّى انتهز تَقَلَّبَ الحكم في فاس، وتآمر على الوزير الحسن بن عمر، وانتظم في سِلْكِ الوزير المُتَغَلِّب منصور بن سليمان، وتولَّى الكتابة له، بَيْدَ أنَّ نفسه نازعته على خَلْعِ رِبْقَةِ الطاعة فانتهز فرصة أخرى، وهي مرابطة السلطان أبي سالم أخي السلطان الهالك أبي عنان على ثغور جبال غمارة، وذلك لمَّا أرسل السلطان أبو سالم كتابا سِرِّيًا مع مبعوثه الفقيه ابن مرزوق، يَحُثُّه فيه على إرساء دعوته والتمهيد لها، ووعده بعد استرداد الملك بالحظوة والتقريب، فقام ابن خلدون بهذا الأمر خير قيام ومضى في تحريض دعائم الملك وشيوخ القبائل وساستها حتَّى استجابوا لدعوة أبي سالم، وأنفذوا أمرهم في انتظام سِلْكِه، ولم يلبث الوزير الحسن بن عمر حتى أسلم القياد للسُّلطان أبي سالم بعد أنْ أجهده حصارُ الوزير منصور بن سليمان وفتَّ في عَضُده، ويمضي ابن خلدون بعد هذا الموقف مغادرا سيده فجأة على حين غرِّة مع من تألب على مُلْك الوزير منصور إلى معسكر السُّلطان أبي سالم ثُمَّ عَرَضَ عليه الخُطَّةَ لتمزيق عرشه، "وسار أبو سالم في جموعه وابن خلدون في ركابه إلى فاس ففرَّ المنصور بن سليمان عند مَقْدَمِهِ، وجَلَسَ أبو سالم على عرش أبيه سنة 760ه، وقد عيَّن ابن خلدون كاتبا للسِّرِّ والإنشاء، وجعله موضع ثقته وعطفه"[[7]](#footnote-8)، ولبث فيها عامين يتقلَّدُها على خير وجه حتى ولاَّه السُّلطان خُطَّة المظالم فبلغ فيها الغاية من الكفاءة، ولكنَّ الأيَّام دُوَل، "فلمَّا ألقت الدولة مقَادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله، مدَبِّر الأمر وله إليه قبل ذلك وسيلة، وفي حَلْيه شَرِكة، وعنده حقٌّ رابه تقصيره، عمَّا ارتمى إليه أمَلَه، فساء ما بينهما إلى أن آل إلى انفصاله عن الباب المَريني"[[8]](#footnote-9).

1. **رحلة ابن خلدون إلى الأندلس ولقاؤه بالوزير ابن الخطيب السَّلماني:**

كان لابن خلدون يدٌ سابقةٌ في إكرام السُّلطان محمد بن الأحمر ووزيره ابن الخطيب، وذلك لمَّا دَالَت دَوْلَتهم وخُلِعَ عَرْشُهم بغرناطة، وقد مكثوا في المغرب حتَّى استعادوا ملكهم ودارت الدائرة لهم، فلمَّا أظلم الجوُّ بين ابن خلدون وبلاط الملك بفاس قرَّر الرِّحلة إلى الأندلس، واستأذن الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على السَّفَر، فخشي الأخير أنْ يَمْكُرَ به ابن خلدون في طريقه إلى تونس، غير أنَّ ابن خلدون سعى في شفاعة الوساطة وكان له ذلك شريطة أن يركب البحر على طريق الأندلس إلى تونس، وتَمَّتْ له بذلك أوَّل رحلة إلى الأندلس، فدخلها سنة 764ه، وعرَّج على مَلِك قشتالة ورأى فيها آثار أجداده بإشبيلية، ثم لبث عنده دهرا يسيرا فأكرم وفادته وسأله المكوث عنده وتوليته إرث أجداده غير أنَّ ابن خلدون رفض هذا، وسار إلى غرناطة مُيَمِّمًا بلاط السُّلطان محمد بن الأحمر، فناله الأخير بحظوة ووفور وِفَادَة، وأقطعه بعض الضياع وردَّ إليه أهله وزَوْجَه، حتَّى سعى الواشون بينه وبين الوزير ابن الخطيب ونَزَلَتْ سُجُفُ الغواية بينهما، فعزم ابن خلدون على الرَّحيل، ولم يلبثْ غيرَ قليل حتَّى بَلَغَهُ كتابٌ من صديقه أبي عبد الله محمد أمير بجاية يبشره أنَّه اسْترَدَّ مُلكه ويسأله القدوم عنده، فغادر الأندلس وركب البحر سنة 766ه متوجها إلى بجاية.

1. **تَوَلِّي الحِجَابَةَ في مُلْكِ أمير بجاية:**

أبو عبد الله محمد أمير بجاية، هو ذلك الرَّجل الذي عانى ابن خلدون من أجله الأَسْرَ والبَتْرَ، فكأنَّ صاحبه هذا لم ينسَ ثَبَاتَهُ معه، وكان قَدْ وَعَدَه إنْ هو اسْتَرَدَّ مُلْكَهُ أنْ يُوَلِيَّهُ الحِجَابَة ، ومعنى الحِجَابَةِ في اصطلاحهم كما ذكرَ ابن خلدون: " الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد"[[9]](#footnote-10)، ومكث ابن خلدون على هذا الدَّأب حتَّى استولى السُّلطان أبو العبَّاس أمير قسنطينة على بجاية، ولقي أمير بجاية أثناء هذا الغَزو مَصْرَعَه، لينضوي ابن خلدون بعد ذلك مع أبي العبَّاس ثم تَدِّبُ خِلالَهما جَفْوَةٌ قاتلة، لتَنْحُوَ بعد هذا الأحداث منحى سيئا جدًّا في حياة ابن خلدون، إذ يستطيع الفرار إلى بسكرة ليباشر عملا سياسيا يخدم مصلحة السلطان أبا حمو، وتزداد الأحداث تعقيدا وتأزُّمًا، وتسير الأيام في مجرى لا يشتهيه ابن خلدون، إذ يمكن ذكرُ أهَمِّ الأحداث كالآتي:

* استدعاء السُّلطان أبو حمو لابن خلدون في بلاط تلمسان.
* قدوم الوزير ابن الخطيب السَّلمانِيِّ إلى المغرب بعدما أظلم الجَوُّ بينه وبين ابن الأحمر.
* نزوح ابن خلدون إلى فاس.
* سفر ابن خلدون إلى الأندلس بعدما حِيكَتْ حوله الدَّسَائِسُ والمُؤَامَرَات، ومطالبة بلاط فاس بتسليمه.
* نكبة ابن الخطيب السَّلماني ومصرعه في بلاط فاس.

1. **بَدْءُ التَّأليف والعودة إلى الموطن الأصليِّ:**

رجع ابن خلدون إلى بلاط أبي حمو الذي نكره وسخط عليه لولا شفاعة بعض الوساطة، وكان من أمر ابن خلدون أن اعتذر على تولي جميع مناصب السياسة والدولة، وحنَّ وَجده إلى الدَّرس والعلم والتأليف وهو آنذاك قد أدرك الخامسة والأربعين، فنزلَ على أحياء بني عَريف فأكرموا مُقَامَهُ وَأَنْزَلُوه خَيْرَ منزل مع أهله في قلعة بني سلامة من أعمال توجين، فثوى بها أربعةَ أعوام أتَّم فيها مقدِّمَتَهُ المشهورة، وأوائل فصول تاريخ العرب والبربر وزناتة، فكانت خَلْوَتُهُ هذه بركةً عليه وعلى العلم بعده، وقد كان قَصْدُ ابن خلدون في بادئ الأمر أن يكتب تاريخ المغرب فقط، فلمَّا رأى أنَّ مصادر تاريخ المشرق لا تَسُدُّ نَهَمَه الفِكْرِيَّ عَزَمَ على الرُّجوع إلى تونس وفيها يومئذٍ كثير من المكتبات الزاخرة بالمصادر الَّتي تُعِينُه، وسلطان تونس أبو العبَّاس الَّذي فرَّ منه ابن خلدون إلى بسكرة كما أسلفنا، فبعث إليه يسأله الصَّفح والعفو فعفا عنه السُّلطان وأقدمه وأكرم مثواه، وجلس حينا من الدَّهر بين السياسة والعلم، غير أنَّ الدَّسائس عادت تحيطه من الفقيه ابن عَرَفة الَّذي بزَّه ابن خلدون في العلم وتفوَّق عليه في الدَّرس، فتَوجَّسَ منه خيفة وعلم أنَّ الرحيل قد أفِد، فسارع في إتمام ديوان التَّاريخ وتمَّت له بذلك خَتْمَةُ النُّسْخةِ الأولى من الكتاب، وعلمَ أنَّ بقاءه في المغرب مَظِنَّةٌ للبوار فاستأذن السلطان أبا العبَّاس إلى أداء فريضة الحَجِّ فأذن له، وخرج الرَّجُل من المغرب ميَمِّمًا وجهته نحو المشرق، وكانت هذه الرِّحلة آخر عهده بالمغرب.

**ثانيا: حياته في المشرق [784ه-808ه]**

دخل ابن خلدون مصر في عيد الفطر من سنة 784ه، بعد رحلة بحريَّة شاقَّة دون أهله وزوجه الذين سوف يَرْزَأ بهم بعدما أدركهم الغرق، وذلك لمَّا طلبَ من سلطان تونس استقدامهم، والمُلْفِتُ في حياة ابن خلدون في المشرق أنَّه عَدَلت عن الحياة السياسيَّة إلى حياة التدريس والقضاء، وجرت له أحداث كثيرة جدَّا نلخصها في هذه النِّقاط:

* جلوسه بالأزهر الشريف وتوليه التَّدريس بالمدرسة القمحيَّة.
* ولايته لقضاء المالكِيَّة وظهور الدَّسَائِس الَّتي تَسَبَّبَتْ في عَزْلِهِ من القضاء دونَ التَّدْرِيس.
* ولايته التَّدريس بالمدرسة الصَّرغتمشيَّة.
* ولايته مَشْيَخَة خانقاه بيبرس وهي أعظم الخوانق (ملاجئ الصُّوفيَّة) آنذاك.
* سعيه في تنمية الصِّلة بين بلاط مصر والمغرب.
* تولي منصب قضاء المالكيَّة للمرَّة الثانيَّة.
* الرِّحلة إلى بلاد الشام وفلسطين وعزله عن القضاء.
* غزو التتار للشَّام وتغلب تيمورلنك على حلب ودمشق.
* خروج سلطان مصر للقاء غزاة التتار واستصحابه لابن خلدون.
* نزول ابن خلدون مع بعض الفقهاء من أسوار دمشق للقاء تيمورلنك.
* مطاراحات ومناقشات تيمورلنك لابن خلدون وكتابته عهد الآمان للقضاة والمبعوثين.
* عودة ابن خلدون لمصر بعد استئذان الفاتح تيمورلنك.
* ولايته لمنصب القضاء للمرَّة الثالثة ثم تعاقب العزل والقضاء حتى المرَّة السَّادسَّة.

**ثالثا: وفاته**

قال السَّخاويُّ في الضَّوء اللاَّمع:" مَاتَ قَاضِيا فَجْأَة فِي يَوْم الْأَرْبَعَاء لأَرْبَع بَقينَ من رَمَضَان سنة 808ه، عَن سِتّ وَسبعين سنة وَدون شهر، وَدُفن بمقابر الصُّوفِيَّة خَارج بَاب النَّصْر عَفا الله عَنهُ"[[10]](#footnote-11)

**رابعا: آثاره**

ترك ابنُ خلدون آثارا جَمَّةً ومؤلفات نفيسة، ذكرَ شيئا منها صديقه الوزير ابن الخطيب في كتابه الإحاطة، قال:" **شَرَحَ القصيدة المُسَمَّاةَ بالبُرْدَة شرحًا بَديعا**، دلَّ فيه على انفساح ذَرْعِه، وتفنُّنِ إدراكه، وغزارة حفظه، **ولخَّص كثيرا من كتب ابن رشد**، وعلَّق للسُّلطان أيَّام نظره في العلوم العقلية **تَقْييدًا مفيدا في المنطق**، **ولخَّص مُحَصَّل الإمام فخر الدِّين ابن الخطيب الرَّازي**، وبذلك دَاعَبْتُهُ أَوَّلَ لُقْيَةٍ لَـقِيتُهُ [ببعض منازل الأشراف، في سبيل المبرَّة بمدينة فاس] ، فقلت له: لي عليك مطالبة، فإنَّكَ لَخَّصْتَ "مُحُصَّلِي"، **وألَّفَ كتابًا في الحساب**، وشَرَعَ في هذه الأيَّام في **شَرْحِ الرَّجَزِ الصَّادِر عَنِّي في أصول الفقه**، بشيء لا غاية وراءه في الكمال"[[11]](#footnote-12)، غير أنَّ عوادي الزَّمن لم تبق منها شيئا، واشتهر من كلِّ مؤلفاته ديوانه **" كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر "**.

**خامسًا: ابن خلدون الشَّاعر والناثر والمُتَرَسِّل**

كان ابن خلدون شاعرًا كبيرًا ومُتَرَسِّلا وَنَاثِرًا، وقد نَقَلَ كثيرا منْ مُخَاطَبَاتِهِ وَأشعاره وتَرَسُّلاته وإخوانيَّاته في كتاب العبر، وهذه شهادةٌ مِنْ صَدِيقهِ ابنِ الخَطِيبِ يَصِفُ فيها إبدَاعَه وَصْفًا دَقِيقًا رَائِقًا جَمِيلا، يقول:"وأمّا **نَثْـرُهُ وسلطانيَّاتُه**، مرسلها ومسجعها، فَخَلَجُ بلاغة، ورياضُ فُنُون، ومعادن إبداع، يِفْرُغُ عنها يَرَاعُهُ الجريء، شبيهة البداءات بالخواتم، في نَدَاوة الحروف، وقربِ العَهْدِ بَجَرْيَةِ المداد، ونفوذ أمر القريحة، واسترسال الطَّبع، **وأمَّا نظمهُ** فنهض لهذا العَهْدِ قُدُمًا في ميدان الشِّعر، وأغري نقده باعتبار أساليبه فانْثَالَ عليه جَوُّه، وهانَ عليه صعبه، فأتى منه بكل غريبة، من ذلك قوله يخاطب السُّلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة (762ه) بقصيدة طويلة: [الكامل]

|  |  |
| --- | --- |
| **أَسْرَفْنَ فِي هَجْرِي وَفِي تَعْذِيبِي ْ** | **وَأَطَلْنَ مَوْقِفَ عَبْرَتِي وَنَحِيبِي** |
| **وَأَبِينُ يَوْمَ البَيْنِ مَوْقِفَ سَاعَـةٍ** | **لِوَدَاعِ مَشْغُوفِ الفُؤَادِ كَئِيبِ** |
| **للهِ عَهْدُ الظَّاعِنِينَ وَغَادَرُوا** | **قَلْبِي رَهِينَ صَبَابَةٍ وَوَجِيبِ** |
| **غَرَبَتْ رَكَائِبُهُمْ وَدَمْعِيَ سَافِحٌ** | **فَشَرَقْتُ بَعْدَهُمُ بِمَاءِ غُرُوبِي** |
| **يَسْتَعْذِبُ الصَّبُّ المَلامَ وَإِنَّنِي** | **مَاءُ المَلامِ لَدَيَّ غَيْرُ شَرِيبِ** |
| **مَا هَاجَنِـي طَرَبٌ ولا اعْتَادَ الجَوَى** | **لَولا تَذَكُّرُ مَنْزِلٍ وَحَبِيبٍ** |
| **أَهْفُو إِلى الأَطْلالِ كَانَتْ مَطْلَعًا** | **لِلبَدْرِ مِنْهُمْ أَوْ كِنَاسِ رَبِيبِ"[[12]](#footnote-13)** |

1. عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، دار الفكر، لبنان، ط1، سنة 1988م، ج7، ص 507، بتصرُّف. [↑](#footnote-ref-2)
2. ابن خلدون، المصدر السَّابق، ج7، ص 510.

   **\*** كلُّ ما ذكرناه من جملة شيوخ ابن خلدون هو من كتاب العبر لمَّا ترجم المؤلف عن نفسه، ولاضطراب السياقات وتباعدها عدلنا عن إثقال الترجمة بالهوامش التَّي تخص قضيَّة شيوخه إلا ما نرى الحاجة مُلِحَّة في إثباته. [↑](#footnote-ref-3)
3. كتابة العَلامَة في اصطلاح أهل السياسة آنذاك كما قال ابن خلدون: "هي كتابة «الحمد للَّه والشكر للَّه» بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم"، كتاب العبر، ج7، ص 532. [↑](#footnote-ref-4)
4. ابن خلدون، المصدر السَّابق، ج7، ص 513. [↑](#footnote-ref-5)
5. المصدر نفسه، ج7، ص 514. [↑](#footnote-ref-6)
6. المصدر نفسه، ج7، ص 532. [↑](#footnote-ref-7)
7. محمد عبد الله عِنان، حياة ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1933م، ص 29. [↑](#footnote-ref-8)
8. ابن الخطيب السَّلماني، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج3، ص378. [↑](#footnote-ref-9)
9. ابن خلدون، المصدر السَّابق، ج7، ص 559. [↑](#footnote-ref-10)
10. أبو الخير شمس الدِّين السَّخاويّ، الضَّوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة – بيروت، ط1، ج4، ص146. [↑](#footnote-ref-11)
11. ابن الخطيب السَّلماني، المصدر السَّابق، ج3، ص386. [↑](#footnote-ref-12)
12. المصدر نفسه، ج3، ص 387. [↑](#footnote-ref-13)